آثار عصور ما قبل التاريخ في سورية الجنوبية
(محافظتا السويداء ودرعا)

سلطان محيسن

جامعة دمشق ـ كلية الآداب، سورية

يتعرض البحث إلى عصور ما قبل التاريخ في جبل العرب وهضبة الجولان، وهي منطقة بركانية ذات طبيعة خاصة، تعود المعلومات الأولى حولها إلى بداية القرن الحالي. وقد أظهرت الأبحاث المتتالية أنها سكنت لأول مرة منذ العصر الحجري القديم الأدنى (الباليوليت) كما دلت على ذلك الأدوات الحجرية الآشولية التي وجدت في وديان الزيدي واليرموك التي أعطت أيضاً دلائل من العصر الحجري القديم الأوسط (اللفلوازي ـ الموستيري)، ولم يعثر على آثار واضحة ونموذجية من العصر الحجري القديم الأعلى مع أن بعض الأدوات الحجرية يمكن أن تنسب لهذا العصر.

هناك دلائل من العصر الحجري الوسيط (الميزوليت) تعود للحضارة النطوفية، أتت من موقع الطيبة. لقد سكنت هذه المنطقة بلا انقطاع بدءاً من العصر الحجري الحديث، (النيوليت) وهو عصر الزراعة والاستقرار، الذي دلت عليه التلال العديدة، التي تضم بقايا القرى الأولى واستمر فيها الاستيطان كثيفاً وعبر العصر الحجري النحاسي حتى بداية العصور التاريخية القديمة في مطلع الألف الثالث ق.م

❋ ❋ ❋

يتناول بحثنا المنطقة التي يطلق عليها اسم الإقليم الجنوبي الغربي في سورية. وهي تتألف من حوض دمشق في الشمال وجبل العرب في الشرق وهضبة حوران في الوسط والجولان في الجنوب، وتضم إدارياً محافظات دمشق والسويداء ودرعا والقنيطرة. ولكننا لضرورة البحث سوف نعالج منطقتي جبل العرب وهضبة حوران. إن المنطقة المدروسة تشكل جزءاً من هضبة بركانية معظم صخورها من البازلت والدولوميت والبريشة والحصى والرماد البركاني. إن أقدم الصخور البركانية فيها يعود إلى عصر الميوسين الأوسط والبليوسين. أما الصخور الرسوبية فهي نادرة عموماً وتتوضع في الوديان الرئيسة مثل وادي الزيدي واليرموك، ويتواجد الصوان بشكل خاص في منطقتي الجولان وحوران وهو من عصرالايوسين الأدنى. لقد كان النشاط البركاني هنا قوياً شاملاً ومتكرراً عبر العصور وكان له الدور الأكبرفي تحديد الطبيعة الجيومورفولوجية والجيولوجية والأثرية لهذه المنطقة، فشكلت البراكين تضاريس مختلفة كالوديان والتلال والمخاريط والأسوار والأنفاق والمغاور الطبيعية وغير ذلك. وقد استمرت الحركة البركانية هنا حتى عصر الهولوسين والعصر الحديث، كما تدل على ذلك مناطق عديدة منها الصفا والكراع واللجا وشهبا واليرموك (١).

وقد أدت البراكين في بعض الأحيان إلى تخريب وحرق مواقع ومستوطنات إنسان عصور ماقبل التاريخ وإتلاف محتوياتها الأثرية وبقاياها الحيوانية والنباتية ودفنها في

أعماق الأرض. ولكن هذه البراكين ساعدت في أحيان أخرى على حفظ تلك المواقع وتغليفها تحت الصبات البركانية.

وطال هذا الدمار بشكل خاص المواقع الأقدم، العائدة للعصر الحجري القديم (الباليوليت) التي تعرضت أكثر من غيرها للإندفاعات البركانية، التي حصلت في القسم الأول من الرباعي، بينما لم تشهد المواقع الأحدث والعائدة للعصر الحجري الحديث (النيوليت) إلا القليل من تلك الإندفاعات. ولكن هذه البراكين ساعدت في بعض الأحيان على ضغط المواقع الأثرية بصبات بركانية حفظتها من عوامل التخريب الطبيعية.

يجب أن نشير أننا مازلنا لانملك معلومات حديثة ودقيقة عن آثار عصور ماقبل في هذه المنطقة. إن الجزء الأعظم من المعطيات المتوفرة يعود إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وهذه المعطيات هي نتيجة أنشطة أفراد هواة بشكل خاص، عملوا بإمكانيات علمية وتقنية متواضعة، فواجهوا صعوبات كثيرة في تبيان الهوية العلمية الحقيقية للعديد من المواقع والتبست عليهم العصور والحضارات، فظنوا مثلا أن مجرد وجود الأدوات الحجرية في موقع ما، هو دليل انتمائه إلى العصور الحجرية، ونسبوا إلى تلك العصور بعض الأبنية الحجرية الضخمة (ميغاليت)، والتي نعلم الآن أنها تعود للعصور التاريخية. زد على ذلك أننا لانعرف عن مصير المواد الأثرية التي التقطت شيئاً، بعضها فقد، وقسم منها بقي في الحوزة الشخصية لجامعيها، وقليل جداً منها وصل إلى متاحفنا.

ومن جهة أخرى فإن الأبحاث الحديثة التي حصلت في هذه المنطقة لم تتعرض للعصور الحجرية إلا على سبيل الإشارة أو التذكير بالأعمال القديمة (٢)، ونحن أثناء مراجعتنا لما نشر حول هذا الموضوع حتى الآن نجد صعوبة في تحديد حضارة وعصر المواقع المعنية وذلك في ظل غياب الوصف والأشكال والقرائن الجيولوجية وغيرها، ولكننا من خلال التقويم الدقيق لواقع المعلومات الراهنة نستطيع تحديد الخطوط العريضة لمجتمعات عصور ماقبل التاريخ في هذه المنطقة كالتالي:

العصر الحجري القديم (الباليوليت):

إن الآثار العائدة لهذا العصر، وبخاصة للقسم الأول منه أي العصر الحجري القديم الأدنى (الباليوليت الأدنى) نادرة جداً. ونحن نقرأ عن فؤوس حجرية لها رؤوس حادة وقبضات مستديرة، جمعها الأب جوزيف نصر الله وغيره، من وادي الزيدي واليرموك في درعا واعتبرها «آشولية دنيا» (٣). وبغض النظر عن المرحلة الآشولية التي تنتمي لها تلك الفؤوس فعلاً، فمن المؤكد أنها تمثل أقدم آثار الإنسان في سورية الجنوبية، لأننا نعرف أن ذلك النوع من الأدوات ينسب إلى مايعرف عالميا «بالآشولي» (Acheuleen) وهو من صنع إنسان من نوع الهوموواركتوس الذي وصل إلى المشرق العربي منذ حوالي مليون سنة خلت.

وفي السنوات الأخيرة، أثناء زيارة ميدانية، قمت بها بصحبة الجيومورفولوجين بول سانلافيل (P. Sanlaville) وجاك بيزانسون (J. Besançon) تم العثور، في السرير الأعلى، والأقدم، لنهر اليرموك، في منطقة زيزون، على أدوات حجرية، قواطع وشظايا، متآكلة وتحمل كمخة قديمة تشبه أدوات أتت من حوض العاصي بخاصة وأرخت هناك على حوالي نصف مليون سنة خلت (عصر اللطامنة). ولدينا معلومات حول وجود فؤوس يدوية في وادي الزيدي يعتقد أنها من عصر اللطامنة نفسه.

وفي وادي الزيدي واليرموك أيضا وجدت أدوات حجرية نسبها الأب فرنسيس أور (F. Hours) إلى مايعرف عالميا «باللفلوازي - الموستيري» (Levalloiso- Moust-erien) أي إلى العصر الحجري القديم الأوسط (الباليوليت الأوسط). الذي ابتدأ منذ حوالي / ٢٠٠,٠٠٠ / سنة خلت، وعاش فيه إنسان النياندرتال الذي ترك آثاراً غزيرة ومنوعة في كل مكان من المشرق العربي القديم.

ومنذ الأربعينات من هذا القرن قام كل من الفرنسيين: غريدل (Gridel) ثم بوليو (Beaulieu) وبعده ڤان ليره Van Lieré بمسح شبه شامل في منطقة جبل العرب، حددا إثره عشرات المواقع ماقبل التاريخية، القليل من هذه المواقع (شهبا، زلف) نسب إلى العصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليت الأعلى)، وهو عصر بدأ منذ حوالي / ٤٠,٠٠٠ / سنة خلت، ويعرف عموماً في المشرق بندرة آثاره، بالرغم من أنه عصر ظهور الإنسان العاقل ذي الحضارة المتطورة في كل الميادين (٤).

العصر الحجري الوسيط (الميزوليت):

إن أكثر المواقع أهمية ودلالة من هذا العصر هو الطيبة، على الجهة اليسرى لوادي الزيدي في محافظة درعا. لقد أظهرت تنقيبات السيدة ماري كلير كوفان (M.-C. Cauvin) هنا منذ السبعينات أن هذا الموقع يمثل معسكراً صغيراً ومؤقتاً، أقيم في مكان متميز خلف أسوار بازلتية طبيعية، مطلا على الوادي الغني. وسكنته جماعة (نطوفية)، اصطادت الغزال والثور والماعز البري والتقطت الثمار الطبيعية المنوعة وصنعت الأدوات والأسلحة الحجرية الصغيرة وذلك منذ الألف العاشر ق.م، وجدير بالذكر أن النطوفيين (نسبة إلى وادي النطوف في فلسطين) يمثلون حضارة متطورة انتشرت بتجانس مبهر من وادي الأردن جنوباً وحتى وادي النيل غرباً ووادي الفرات شرقاً وذلك على امتداد الألفين العاشر والتاسع ق.م. وتتواجد آثارهم في أكثر من منطقة في جنوب سورية.

العصر الحجري الحديث (النيوليت):

يعتبر هذا العصر بالغ الأهمية في المشرق، فهو عصر الزراعة والإستقرار ونشوء القرى الأولى ذات السوية الحضارية المتطورة في كل الميادين الإقتصادية والروحية. وبسبب غياب أعمال التنقيب فليس لدينا معلومات مهمة عنه الآن. ولكن اللقى السطحية تشير إلى أهمية المجتمعات الزراعية في منطقتي السويداء ودرعا. وإلى أن هذه المجتمعات تحمل صفات مشتركة بين جنوب وشمال بلاد الشام، أي بين فلسطين والأردن من جهة وبين سورية من الجهة الثانية: فقد أحضر لي أحد طلاب قسم التاريخ في جامعة دمشق عدة رؤوس نبال من النوع المسمى (نبال الخيام) ذات الفرض المتقابلة، التي عرفت منذ نهاية الألف التاسع وانتشرت في أريحا في فلسطين وحتى موقع المريبط على الفرات السوري. كما أن الأعمال السابقة لكل من غريدل وبوليو وجوزيف نصر الله وڤان لير (Van Lieré) وجاك كوڤان (J. Cauvin) وغيرهم، أشارت إلى وجود آثار العصرالحجري الحديث، وبخاصة رؤوس النبال في مواقع عديدة: تل قليب، تل جينة، تل شهاب، الطيبة وبصرى. ولدينا من تلك المواقع بقايا أوان فخارية تعود إلى نهاية الألف الخامس من النوع المسمى «اليرموكي» المعروف من جنوب بلاد الشام والذي يمثل المرحلة الأخيرة في مجتمعات العصر الحجري الحديث (٥).

العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت):

إن الجزء الأكبر من مواقع عصور ماقبل التاريخ التي اكتشفت نتيجة الأعمال القديمة التي أتينا على ذكرها قد نسب إلى هذا العصر الذي سميّ في حينه الإينيوليت (Eneolithique)، ولكن شاعت الآن تسمية الكالكوليت، وهو يمثل المرحلة الإنتقالية بين عصور ماقبل التاريخ، أي بين العصور الحجرية، وبين العصور التاريخية أي عصور البرونز، ويؤرخ بشكل عام بين نهاية الألف الخامس وبداية الألف الثالث ق.م.

ومن الطبيعي أن يكون الجزء الأكبرمن المواقع التي لم تخربها البراكين هو من هذا العصر المتأخر. ولعل الموقع الذي قدم الشواهد الأفضل عن هذا العصر هو درعا، حيث نقب الأب جوزيف نصر الله منذ الأربعينات من هذا القرن. فقد عثر هنا على كل آثار الحضارة الغسولية (نسبة إلى موقع تليلات الغسول في حوض الأردن) من أدوات حجرية وأدوات الصيد والزراعة إضافة إلى الأبنية الحجرية الكبيرة، وبشكل عام فإن المواقع العائدة لعصر الكالكوليت كثيرة جداً وهي منتشرة في كل مكان من جنوب سورية وتشكل مع المواقع الفلسطينية والأردنية الشمالية منطقة حضارية واحدة، مهدت الطريق لدخول مجتمعات المشرق العربي القديم في العصور التاريخية ومنذ مطلع الألف الثالث ق.م، حيث نشأت المدن الأولى مثل خربة الأنباشي (خربة النباش) والهبارية وتل عشترة في سورية وجاوا وخربة الزيرقون في الأردن ومجيدو وأريحا وشيخ علي في فلسطين.

الحواشي:

١- راجع:

جيولوجية سورية ولبنان، لويس دوبرتريه، ترجمة ميخائيل معطي؛

الأقاليم الجغرافية السورية، عادل عبد السلام؛

L. Durbertret, *GPGD* 2, pp. 274-282;

L. Durbertret et M. Dunand, «Khirbet el-Umbachi et Hebariyeh», *AAAS VI-V*, pp. 59-76.

٢- راجع:

F. Braemer, «Prospections archéologiques dans le Hawran», *Syria LXI*, pp. 219-250;

Idem, «Prospections archéologiques dans le Hawran, les réseaux de l'eau», *Syria LXV*, pp. 99-137;

J.-M. Dentzer, éd. Recherches archéologiques sur la Syrie du sud: *Hawran I*;

M. Maqdissi, *Berytus XXXII*, pp. 7-17.

٣- راجع:

N. Nasrallah, *RB 55*, pp. 81-103;

Idem, *Syria 27*, pp. 314-331;

Ibid, *BSPF 35*, pp. 734-746.

٤- راجع:

A. Beaulieu, *Syria 24*, pp. 282-294;

H. Gridel, *BSPF 41*, pp. 80-83;

van Lière W.-J., *Observations on the Quaterrery of Syria.*

٥- راجع:

J. Cauvin, *Cahiers Ligures de la Préhistoire et d'Archéologie*, pp. 282-284;

M.-C. Cauvin, *AAAS 23*, pp. 105-110;

M. Kadour et H. Seeden , *Damaszener Mitt 1*, pp. 77-107;

R. Miller, *Berytus XXXII*, pp. 149-158.

المراجع :

دوبرتريه، لويس: جيولوجية سورية ولبنان، ترجمة ميخائيل معطي، دمشق، ١٩٧٠.

عبد السلام، عادل: الأقاليم الجغرافية السورية، جامعة دمشق، كلية الآداب، ١٩٨٩-١٩٩٠.

Bealieu A., *Syria 24*, 1945.

Braemer F., «Prospections archéologiques dans le Hawran», *Syria LXI*, 1984.

Braemer F., «Prospections archéologiques dans le Hawran. II les réseaux de l'eau», *Syria LXV*, 1988.

Cauvin J., *Cahiers Ligures de Préhistoire et d'Archéologie 12.*

Cauvin M.-C., *AAAS 23*, 1973.

Dentzer J.-M., éd. Recherches archéologiques sur la Syrie du Sud: *Hawran I*, Paris, 1985.

Dubertret L., *GPGD* 2, 1924.

Dubertret L. et Dunand M., «Khirbet el-Umbachi et Hebariyeh», *AAAS VI-V*, 1954-55.

Gridel H., *BSPF 41*, 1944.

Kadour M. et Seeden H., *Damaszener Mitt 1.*

van Liere W. J., *Observations on the Quaterrary of Syria*, 1960-61.

al-Maqdissi M., *Berytus XXXII*, 1984.

Miller R., *Berytus XXXII*, 1948.

Nasrallah J., *RB 55*, 1948.

Nasrallah J., *Syria 27*, 1950.

Nasrallah J., *BSPF 35*, 1956.